العودة المتخيلة ـ المستقبل

إبتسام عازم*

شقائق النعمان التي غادرت فلسطين

توقفت شقائق النعمان، ولأول مرة في تاريخنا، عن الظهور فوق سفوح بلدنا هذا الربيع. يقولون إن هذه بشرى خير. كنت أحب تلك الزهور وأنا طفل. كنت أشعر بالارتياح الشديد عندما أراها تحتل تلال بلدتنا. لكن هذا الاستمتاع قطعته همسة جارتنا العجوز الضريرة في أذني حين قالت لي، بعد أن شدتني من ذراعي وكادت تخلعها من كتفي، إن عليّ التوقف عن قطف شقائق النعمان أو المشي فوقها. لم أفهم كيف عرفت ذلك. ثم شدت على يدي بقوة عندما قالت إن عليّ أن أحييها أو أحرك رأسي مبتسماً كلما مررت بجانبها. لم أفهم في البداية، لكنني انتبهت منذ ذلك اليوم إلى أن كبار السن في بلدتنا، كانوا كلما مروا بجانب شقائق النعمان، يحيّونها ويستمرون في مشيهم بخشوع إلى أن يعبروها.

في ذلك الربيع قالوا إن شقائق النعمان ستغيب عن البلد لأعوام مقبلة، وهذه بشرى خير. فاستبشرت وانتظرت، لأن الحكايات التي تقال عن بلدنا كثيرة، وقلت إن لم تظهر، فإن الحكاية صحيحة، وإن ظهرت فسأستمتع بجمالها.

جلست على حافة العمارة، تدلّت رجلاي في الهواء تحتي. تتمرجحان بمرح يشبه مرح الطفولة مع أنني كنت قد تجاوزت عامي الأربعين. بقي أمامنا ثلاث طبقات بعدما انتهينا من بناء الطبقة السابعة. لم ترتدِ الطبقات زخارفها بعد. ما زالت هيكلاً عظمياً. في كل مرة أشرف على بناء بناية أشعر كأنني أعيش داخل حلم صاحبها. بعض العمارات كوابيس مستعجلة لا أحلام فيها غير رصيد البنك. هذه العمارة فيها كثير من الانحناءات، وأنا أحب الانحناءات. كنت أفكر في هذا كله وأنا أنظر إلى الأفق من دون أن أنظر إلى أسفل. كنت قد قرأت مرة أن المستعمَرين لا ينظرون إلى السماء عندما يمشون لأنهم منشغلون بالنظر أمامهم، فهم دائماً على أهبة الاستعداد للمواجهة. وأنا كنت أنظر إلى الأفق حتى وأنا أواجه، هكذا أتخيل نفسي.

أتذكر قصة جدي لأبي الذي ولد قبل أكثر من مئة عام، في سنة ١٩٤٥. أتذكرها جيداً

* كاتبة وصحافية فلسطينية.

كلما وقفت على واحدة من هذه العمارات التي أُشرف على بنائها في المدينة البيضاء، تل أبيب. هذه المدينة التي نمت، كالفطر، على أنقاض غيرها. ترفرف الأعلام الفلسطينية في كل مكان من حولي. غداً سيكون أول يوم تقام فيه الاحتفالات في جميع أنحاء فلسطين بالذكرى الأولى للاستقلال والتحرر. مَن كان يصدق أن هذه العمارات كلها ستحمل العلم الفلسطيني. تغيّر العلم. لو أنهم وضعوا تصميماً جديداً له لكان أفضل من "لطع" العلم بالهلال والصليب ونجمة داود. منذ متى كانت القضية قضية دين؟ حتى هذا العلم سيتغير مجدداً، سيعود إلى صورته الأولى. أنا متأكد.

لماذا لا أستمتع بهذه الأعلام التي ترفرف؟ حتى مَن تبقّى منهم يرفعها على سيارته. ما هكذا أردت أن تكون النهاية أو البداية، بداية استقلال فلسطين أو تشييد الدولة الجديدة. لكن الأمور كانت تسير في هذا الاتجاه، لا محال. لقد صنعوا قطاراً ورفضوا أن يُركّبوا فرامل، واستمروا في الانطلاق نحو الهاوية. وسكة القطار كانت هياكلنا العظمية.. سكة قطارهم كانت هياكلنا العظمية.

عندما أفكر بالـ "هم" التي أستخدمها كثيراً عندما أتحدث عنهم، فإنني أقصد المستعمِرين. ما زلت أستخدم الـ "هم" حين أتحدث عنهم. حسناً، لا بأس، فالاستقلال كان العام الماضي وهذه الـ "نحن" الجديدة التي أحاول هضمها ما زالت صعبة الهضم. لماذا أعود إلى التفكير في النصف الفارغ من الكأس؟ الأعلام ترفرف في كل مكان. ألا يكفي هذا؟ وعاد الذين هجّروا. عاد أولادهم.. ألا يكفي هذا؟

لا عدالة في العدالة...

كيف لي أن أصف الوضع الذي آلت إليه الأمور؟ كان جدي في العشرينيات من عمره عندما بدأت الحرب الثانية علينا في سنة ١٩٦٧. كان في تل أبيب يبني مع غيره من العمال الفلسطينيين العمارة تلو الأُخرى، تحت الحكم العسكري الذي فرضوه عليهم منذ نكبتهم. ١٩ عاماً مرت من دون أن يرى توأمه الذي تهجّر إلى بيروت. اعتقدَ أنه يمكنه أخيراً الذهاب بالسيارة إلى بيروت. الأخبار الآتية كانت تبشرهم بالتحرير. المستعمِرون من حولهم كانوا مرتبكين وخائفين. أدرك جدي وبقية العمال أن عليهم مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن، والعودة إلى بلداتهم والانتظار.

جلس جدي سليم ـ سمّوني على اسمه ـ مع صديقه، على حافة العمارة، وتدلت ساقاه في الهواء وارتشف آخر ما تبقّى من قهوة في فنجانه، في انتظار أن تأتي سيارة العمال لنقلهم، أو بالأحرى لتهريبهم من فلسطين إلى فلسطين، إذ إن معظمهم كان من دون "تراخيص" عمل. نظر جدي سليم وصديقه إلى العمارات التي كانت حولهم. العمارات التي بنوها على أنقاض نكبتهم وسط تل أبيب، ثم بدأ كل واحد منهما باختيار العمارة التي سيهديها لنفسه بعد التحرير. "العمارات أكثر من الناس، ولا بد من أن تكون فلسطين مكاناً عادلاً، لا بد من أن تكون الوطن!".

أذكر صورة جدي ونبرته عندما حدّثنا كيف أن أحد العمال اليهود جاء إليه وقال له: "سليم، إذا دخل العرب وأرجعوا فلسطين، هل أستطيع أن آتي لأحتمي عندك؟" لم يدرك جدي في تلك الساعة أنه هو الذي سيحتاج إلى أن يحتمي مجدداً.

عندما وصل جدي إلى بلدته ذهب مباشرة إلى مقهى أبو شكور، هناك سيعرف آخر الأخبار. تجمّع الناس في المقهى حول الراديو، كما كانوا يتجمعون كل خميس لسماع أم كلثوم. قال المذيع إن قوات الدول العربية وصلت إلى مشارف تل أبيب. نظر جدي إلى صديقه ولم يقولا أي شيء. غادر المقهى وغصة في قلبه. هو جاء للتو من تل أبيب. لا شيء ممّا يقوله المذيع صحيحاً. طارت العمارات! وطارت بقية فلسطين! ليست إلاّ أياماً قليلة حتى توحدت فلسطين، لكن تحت الاستعمار! جميع التضحيات لم تأتِ بثمارها بعد. اعتقَدَ أن دعوة المظلوم تُقبل. "كأن الله مصاب بالطرش ربما، وإلاّ لماذا لم تُقبل دعوة المظلوم في فلسطين؟" استغفر الله! كان رد أحد السامعين على قول جدي وهو يقص تلك الحكاية بتفصيلاتها للمرة الألف.

بعد أكثر من مئة عام أجلس جلسة جدي نفسها، كما أتخيلها، أرتشف قهوته من دون أن أقسّم العمارات، لكنني أنظر خلفي إلى أكثر من مئة عام لاستعمار انتهى. أحب طعم القهوة العربية، أو أي قهوة، وأشرب ركوات منها. أدرك أن إدماني على القهوة هو لحنين في صدري. أضع فنجان القهوة على ركبتي عندما أجلس في حضرة الصباح في حديقتي بصمت وهدوء الندى. أخذت تلك العادة من جدي. لا يمكنني أن أركب السيارة من دون أن آخذ معي فنجان قهوة. أتشاجر مع زوجتي كثيراً بشأن القهوة التي تنسكب في كل مكان في السيارة بسبب المطبات التي خلفتها الجرافات في الشوارع.

الهستيريا التي أصابتهم لا توصف. منظر الجرافات وهي تحفر الشوارع المؤدية إلى قرانا ومدننا وأحيائنا كان سوريالياً. كانت الجرافات مكتظة بالجنود المدججين بالسلاح الذين ينتظرون أن نتحرك شمالاً أو يميناً ليفتحوا النار. أسلحتهم تتكاثر كالجراد، وكانوا ما زالوا يخافون منا.

وقفت مرة أمام المرآة مطولاً، وأخذت صورة فوتوغرافية لشكلي المنعكس فيها علّني أرى في صورة الصورة ما يرون. ما سر خوفهم منا؟ نظرت إلى أنفي الكبير. لا شك في أنه كبير، وعيناي جاحظتان بعض الشيء، لكني لم أجد ما هو مبرر لخوفهم. لا بد من أن عيونهم ترى ما لا نرى. قد ترى عيونهم أياً منا كأنف فقط أو كفم أو كلسان يلعلع بين أسنان كبيرة ربما مسوسة أو يتخيلونها كذلك. لا بد من أن نبدو لهم هكذا كعضو ما في هذا الجسد، وليس كأجساد لها ما لها وعليها ما عليها من أجساد البشر.

كان لا بد من أن نشعل تلك الحقول. الهستيريا التي أصابتهم لا توصف. لم أتخيل قط أن الأمور ستنتهي بهذه "البساطة". كنت متأكداً من أني سأنجو حتى إن بدأوا مرة أُخرى بذبحنا، كما تُذبح الخراف، وبتهجيرنا كما حدث في سنة ١٩٤٨. قد يذبحونا على طريقة ذبحهم لأهل غزة، كأن يبقونا بين الحياة والموت.. ذبح بطيء.

مهما يكن، كنت متأكداً من أنني سأنجو. لماذا هذا التأكد من النجاة؟ لا أدري، ربما لأن

جدي نجا كأي ناجٍ بالمصادفة، وأنا كنت متأكداً من أنني سأرثها وستكون من نصيبي. مهما يكن، لم أتصور أنّ نصل إلى تلك النهاية أو البداية، وأنني ما زلت في قيد الحياة.

لم أكن أحب جملة "ضاعت فلسطين" التي كان يرددها الكبار وأنا صغير. كنت أصر عندما أسمع شخصاً يقول إن "فلسطين ضاعت"، على أنها لم تضع لأن هناك مَن تمكّن من البقاء فيها، وهناك مَن طُرد ولم ينسَ وما زال يصر على العودة. الآن أدرك، أو هكذا أشعر بهذه اللحظات، معنى تلك الجملة على الرغم من الانتصار. الآن، لأول مرة بعدما انتصرنا أشعر بمعناها. لأول مرة أفكر في السفر!

مئة عام سبقتها أكثر من خمسين أُخرى. كان همّهم أن يصبحوا نحن، لكن من دوننا؛ بطعامنا، وعاداتنا، وملابسنا، وقصصنا، وأساطيرنا.

بقينا مئة عام نحاول أن نقنعهم بجميع الطرق بأن عليهم وضع الفرامل للقطار، لكن قطارهم كان يمشي من دون أن يتوقف في أي محطة. هذا القطار الذي أبوا أن يضعوا فرامل له، كنا نحاول اللحاق به.. نُصيب حيناً، ونسقط أحياناً أُخرى، ثم نقول: يكفينا ما سُفك من دمائنا.

فلنكن طيبين كما يفعل أبناء الأرض. شيء واحد رفضنا أن نقوله. شيء واحد أرادوه من شفاهنا: أن ما فعلوه بنا كان حقاً. وبقينا، حتى أكبر خائن فينا بقي، من دون أن نقتنع بروايتهم عنّا وعن حقّهم في بيتنا. هكذا ببساطة.. وكلما زدنا إصراراً جن جنونهم. معركة الأرض انتهت منذ زمان، السيطرة عليها كانت مجرد تفصيلات. المعركة كانت دائماً للسيطرة على روايتنا وعقولنا، على ما نرويه وما لا نرويه، وعلى ما نشعره.

كلما مر ربيع ازدادت أعداد زهور شقائق النعمان فوق سفوحنا التي ازدادت احمراراً، ومعها ازدادوا انبهاراً بها وبأنفسهم. كلما مر ربيع اعتقدوا أن شقائق النعمان تتورّد وتزداد احمراراً احتفالاً بهم. لم يسألوا كبار السن بيننا عن أسطورتنا التي تقول إنه كلما استشهد واحد منا أزهر سفح جديد بشقائق النعمان. تلك هي دماء شهدائنا. أمّا سوادها، فما هو إلاّ كُحل رجالنا ونسائنا الذي هطل من عيون الآباء والأمهات حسرة على دماء أبنائهم. كلما احمرت سفوح تلالنا بشقائق النعمان ازدادوا ولعاً بها. كانت تكفيهم رائحة انتصاراتهم ليتمايلوا ثملين من نشوة الانتصارات. وكلما انتصروا قطفوا رؤوس شقائق النعمان من سفوحنا وزينوا بها بيوتهم واحتفالاتهم.. دماؤنا كانت في مزهرياتهم تزين احتفالاتهم.

لم تعد فلسطين ما أردناها أو حلمنا بها. لأول مرة تحمل كلمة «ضاعت فلسطين» معنى بالنسبة إليّ. لأول مرة أبكي بمرارة. ما هكذا تخيلت العودة والبقاء. توقف قطارهم عندما نفدت هياكلنا العظمية التي بنوا منها سكة الحديد. سقط قطارهم الذي كان من دون فرامل، وسمعنا طقطقة عظامنا وقمنا لنرتاح قليلاً ونجلس على حافة الطريق بين شقائق النعمان.

غادر مَن غادر منهم، لأنهم لم يحتملوا مجرد رؤيتنا ـ كان لا بد لكل هذا الدم من أن يسيل.. كان لا بد لكل هذه الأرض من أن تُحرق.. كان لا بد لكل هذا الكابوس من أن يولد.. وكان ممكناً ألا يحدث هذا كله. كان من الممكن ألا يحدث هذا كله، غير أن نشوة انتصاراتهم

العسكرية أعمتهم. ولم يعد لدينا شيء لنخسره بعدما أدركنا أنها ضاعت. ضاعت فلسطين ولم يكن للكلمة معنى قبل اليوم. لكن اليوم، وبعد انتصارنا الكاسح، أصبح لهذه الكلمة معنى.

التاريخ يكتبه الصمت. التاريخ يكتبه المجبرون على الصمت. تقول الحكاية إن شقائق النعمان ستعود لتظهر مجدداً على سفوح تلالنا بعد مئة عام أُخرى كزهور، بعدما تكون قد تخلصت من أثر آخر قطرة دم لشهدائنا في عروقها وسيكون لونها أقل احمراراً، وسنقطفها نحن ونضعها في مزهرياتنا. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

١١: حكايات من اللجوء الفلسطيني

تحرير: حسن داوود

٣٠٢ صفحة ٨ دولارات